الورقة الأخيرة

العقاد يتحدث إلى كتبه

يعَدّ العقاد من أعظم الكتاب الذين أنتجتهم العربية في جميع عصورها، وهو من كتاب الأصالة الذين نافحوا ودافعوا بأقلامهم عن الحضارة الإسلامية وعن دورها الرائد في تقدم البشرية.

وقد عاش العقاد بين الكتب، وأفنى حياته بين صفحاتها وألّف كثيراً منها، بل لقد ألّف عنها بعض الكتب مثل «بين الكتب والناس» و«ساعات بين الكتب» ولابد لشخص له هذه الصلة الوثيقة بالكتب ولديه الشاعرية القادرة على التصوير أن يصوغ تلك العلاقة في قالب شعري، وما قاله العقاد في هذا الموضوع يعتبر من النوادر في الشعر العربي، فقد خاطب الشاعر كتبه في مرحلتين مختلفين، الأولى كانت في أيام الشباب، وفيها ينظر إلى الكتب نظرة شاكية، مصوراً تعبه ونصبه وعناءه في ملازمتها، ومما قاله في تلك المرحلة:

ياكتبي أشكو ولاأغضبُ
ما أنت من يسمع أو يعتب
ياكتبي أورثتني حسرةً
هيهات أن تُنسى ولاتذهب
ياكتبي ألبست جلدي الضنى
لم يغنِ عني جلدك المُذْهَبُ
كم ليلة سوداء قضّيتها
سهران حتى أدبرَ الكوكبُ
كأنني ألمحُ تحتَ الدجى
جماجمَ الموتى بدت تخطبُ
ياكتبي أين تُرى المنتأى
عن أسر أرواحك والمهربُ
في ذمة الطِّرْسِ وفي حفظه
عمرٌ تقضّى شطرُه الأطيب

وبعد أن تمضي به الأيام، وتُنضجه التجربة يُراجع نفسه فيجد أنه قد ظلم كتبه، فيحاول مصالحتها، وذلك بالنظر إلى إيجابياتها، وفوائدها التي لاتحصى، وفي ذلك يقول:

شكوتها والعمرُ في فجره
فكيف بي لما دنا المغربُ؟
لما دنا المغرُب صالحتها
تلك التي تُشكى ولاتغضبُ
تلك التي قلت لها مرةً
والقلب دام والحشا مُلهبُ
(ياكتبي أورثتني حسرة
هيهات لاتُنسى ولاتذهبُ)
فالآن يا كتبي تعالي لمن
أخبثُ شئ عنده طيِّبُ
ما أنت أغلى ثمناً إن غلا
من جوهر يُكنز أو يعطبُ
ويحك إنا نحن من معشرٍ
يسبق فينا الدوِّر أو يَعقِبُ
فليت لي إذْ أنا تحت الثرى
جمجمةً ثرثارةً تخطبُ
رهطاً من القراء يُرضونني
رضاي عن بلواك إذ أغضبُ

فكتبه هنا تُشكى ولكنها لاتغضب من الشكوى، وهي أغلى قيمة من الجواهر التي تتخذ للكنز ويصيبها العطب، ويتمنى أن يحظى بعد موته بقراء يرضونه بمطالعة كتبه التي ألفها، وأفنى فيها الساعات الطوال، إنه يذكرنا هنا بوصف الجاحظ البديع للكتاب، والذي سيظل رغم التقدم في جميع وسائل المعرفة والاتصال أهم مصادر العلم والمعرفة في العالم.

د. عبدالرازق بن حمود الزهراني